

شكسبير العرب جودت حيدر

شاعر يعي إنسانيتهم وسحر الامتداد الأزرق

■ أنجبت لبنان ثلاثة شعراء عالميين على الأقل كتبوا باللغة الإنجليزية وهم أمين الريحاني وميخائيل نعيمة وجبران خليل جبران. وكان ثلاثتهم قد هاجروا إلى الولايات المتحدة شباباً يحملون ظموحاً أكبر من عوالمهم الصغيرة. وسرعان ما انخرطوا في ثقافة العالم الجديد واندمجوا فيها وتكيفوا معها، غير أنهم ظلوا وثيقى الصلة بالأرض الأم مستعدين جبالها وشلالاتها ومزارعها الخضراء وأرزتها الشهيرة في كتاباتهم التي أرست لنفسها هوية واضحة. ولعل وعيهم بالحضارات العديدة التي تعاقبت على بلادهم جعلهم أكثر حساسية من غيرهم إزاء عامل الزمن باعتباره عنصراً حساساً في صياغة البشرية مدركين أنه رغم أن الإنسان قد يبني أو يدمر فإن الأرض باقية تتحمل ما يفرز فوقها..

* شكسبير العرب

هناك شاعر رابع أتبع التقليد الأميركي اللبناني هو جودت حيدر الذي ولد في بعلبك عام ١٩٠٦. تلقى حيدر علومه في الكلية البروتستانتية السورية (الجامعة الأميركية في بيروت حالياً) ونال الإجازة الجامعية في التاريخ ثم

عمله في الـ IPC منح وسام الاستحقاق اللبناني المذهب.

أصوات وأصداء

في مقدمة مجموعته الشعرية الأولى التي تحمل عنوان: «أصوات» كتب عنه جون مونرو رئيس قسم اللغة الإنجليزية في الجامعة الأميركية يقول: «كالريحاني ونعيمة وجبران يعكس شعر حيدر سكبنة فلسفية واحتفاءً بالتصوف، دون أن يقطع صلته بالواقع الحياتي. إن شعر حيدر ليس هروبياً وإنما ملتزم.. قد يكتب عن تكساس أو فلسطين، قد يكتب عن نابليون أو ديغول، إلا أنه في كل حالة لم يكن يهتم بهذه الأماكن وهؤلاء الناس كما هم وإنما من حيث أهميتهم فيما يتعلق بالحضارة والإنسانية. ويعكس حيدر في شعره سعة في الأفق بيئة وقرأ فكرياً ملموساً لا في تنوع موضوعاته وحسب وإنما من حيث الكتاب الذين أُنسروا في تجربته الشعرية وأغناها. إن القارئ ليتلمس في شعر حيدر أصداء بعيدة لكن قوية ومتعددة الجوانب من الشاعر الفيكتوري الفريد تينسون

إلى جانب بساطة روبرت فروست، بينما يتلمس في أشعاره التي كتبها في الفترة الأخيرة تعاطفاً مع الحدائث غير أن هذا لا يعني أن حيدر

والتنوع عليه، وهو أمر يبرز بوضوح شديد في قصائد مجموعته الشعرية الثانية التي تحمل عنوان: «أصداء»..

ما الحزن إلا دمعة دافئة تسقط من العين لتهدئ القلب. أما الدمعة كلمة حزن صامتة. المرح هو المقياس الصحيح للإيمان في القلب. إنما الإنسان مخلوق ضعيف ومع هذا ما يزال قادراً على التحليق بأجنحة من التعقل. في مقدمة هذه المجموعة يعود مونرو فيضيف قائلاً: «تحت الوصف الخارجي يتحدث الشاعر بنبرة واثقة لرجل يعي إنسانيته.. رجل تأمل الوجود ونجح أخيراً في رسم أصواته المتناقضة في الغالب في تناغم حزين ونيل».

من الصعب على شاعر كجودت حيدر أن يكون بمنأى عن الهم العام الذي يرتبط إلى حد كبير بالهم الخاص وينعكس عليه.. أو ليس الشعر في النهاية رصيذاً حياً لكل مظاهر الإنسانية عامة كانت أم خاصة؟

لقد شكلت الحرب الأهلية في لبنان قلقاً فكرياً يومياً لدى حيدر، فاستحوذت على كيانه وأحتلت مساحة ممتدة في العديد من قصائده التي كرسها للبنان وبيروت.. خارج الميناء في البحر أبحر بعيداً أنظر إلى الوراء بيروت تتلألأ في عيوني تومض في قلب العالم تبقى قذيفة مضينة لجد لا يموت أبداً.

وكتيراً ما اتخذ قلقه طابعاً شمولياً، فتفاعل مع قضية محلية من منطلق بُعد إنساني عالمي.. أه أيها العالم! أصبح عالماً عالم ألم قتل.. تعذيب.. منازل فارغة وبأس كالتطبيع يذبح شعبنا في التلال والسهول أه أيها العالم! أليس هنالك عالم في هذا العالم يبالي!

* هوس البحر

ارتبط حيدر بالبحر، وظل هذا الامتداد الأزرق جزءاً لا يتجزأ من خياله المنبسط بلا حدود.. في البحر.. قرأ حيدر الذات البشرية للحررة.. وفي أبحر رأى سحر الخلق والتكوين.. كن سريعاً فلحظ العين ارتفاعاً وانظر من الأفق إلى الهوادي في البحر، أبدأ عطشاً للحرية، تسجد بقوة قادر تهض كالمصلين ما بين المد والجزر. الله أكبر، الله أكبر، لقد أيقنت أن الهوادي أمنت بالأنجيل والقرآن ديناً وأنا أنظر إليها تركع بخشوع وتعبد الشواطئ.. وتصلي صلاة الغروب والفجر على الرمال تتراجع لتبشر بالتقوى ما بين الأسماك وسائر الكائنات في البحر. هكذا عظيمة عظام الوجنتين تبقى مع الدين عبادة ومع الحرية يقظة وجهاداً والخيول أبداً في الطراد تحنها الركاب تتواكب الرياح.. مسيرة وأنفاسها براكين بخار تتصاعد سحباً سابحات في الفضاء تتلاطم وتتلاحم أصواتها رعوداً وبرقها يستشعر كسيوف الشعراء بالفكر الثاقب الواضح..

ولا عجب أن يرتبط حيدر بالبحر حيث يقول في ذلك: «لقد تغرّن حبي للبحر وارتباطي فيه من خلال رحلاتي وسفرااتي العديدة.. لدرجة شعرت معها أن البحر حياتي خصوصاً وأن أمواجه كانت تحملني أياماً طويلة.. أذكر أنني أمضيت فيه في إحدى المرات ٣٣ يوماً.. لقد منحني البحر فسحة للتأمل وشحن الخيال.. البحر مصدر إلهامي وفيه أتبصر كنوز الفكر».

* اللغة

كان السؤال الذي يتبادر إلى الذهن هو سبب نزوع حيدر إلى كتابة الشعر باللغة الإنجليزية.. وما إذا كان هناك أدنى تعارض بين اللغة كوعاء لصيق بحضارة بعينها والشخصية اللصيقة بحضارة أخرى لا مقوماتها المختلفة

والمميزة.. حول هذا الشأن يقول حيدر: «للعقل مقدرة تختلف من فرد لآخر، والعقل عجينة قابلة للتطويع، ويمكن أن يطبع على سطحها أي شيء نضعه عليها. والإنسان هو وحده القادر على تطوير هذه العجينة وتشكيلها كيفما يشاء.. لقد عشت في أميركا فترة طويلة الأمر الذي سهل عليّ اكتساب اللغة من خلال المتابعة والبحث المتواصلين حتى تطور الأمر في النهاية إلى إذابة أية فجوة بين اللغة والفكر.. أصبحت اللغة هي الفكر والفكر هو اللغة..

إن ما كتب في الغرب باللغات الأجنبية والعربية بأقلام عربية كان - ولا يزال - مغفزةً للأجيال القادمة وللوطن العربي مثل كتاب «النبي» لجبران خليل جبران الذي ترددت أصداء مقاطع عديدة منه على السنة الوعاط في الكنائس الأميركية.. وهناك ميخائيل نعيمة صاحب كتاب «النهر الخالد» الذي خلد أسم لبنان في عالم الأدب.. ولا يجب أن نغفل عن كوكبة من الشعراء والكتاب الجدد الذين يحاولون أن يضعوا موطىء قدم راسخاً لهم في المهجر، ورغم أن اتجاههم لم يتطور بعد إلا أنني أعتقد أنه سيكون لهم شأن عظيم في المستقبل».

... ويعد

للشعر نكهته الخاصة. ومع جودت حيدر تكسب هذه النكهة طعماً مختلفاً ومذاقاً آخر خاصاً.. ويرى حيدر أن الشعر لا يعتمد على السليقة كما يظن البعض.. الشعر بناء متكامل.. الكلمة نفسها لها معناها ووزنها وهدفها.. بحيث تصبح لبنة أساسية لا يمكن نزعها بسهولة من مكانها.. الشعر احتراف.. يستلزم تفكيراً عميقاً وهادئاً.. لذا أنا مقلد فلكي أسطر جملة ما احتاج إلى وقت طويل ويتطلب الأمر مني تفكيراً عميقاً وقدر كبيراً من التأني.. شيلي على سبيل المثال نظم قصيدة عن تمثال استغرق إنجازها منه ١٢ عاماً.. هذا هو الإبداع الخالص..

يبدو أن جودت حيدر عازم على بلوغ الذرى.. لقد اختط طريقاً شاقاً لذلك.. لكنها طريق مخلص.. واثقة انتهت به إلى بوتوبيا الجمال والإحساس الشفاف.. إن بلغت ذراي اليوم سأجتاز حدود الزمن لاكتب أسمى على جدار الغد



● البحر مصدر إلهامي وفيه أتبصر كنوز الفكر

● اللغة عندي هي الفكر والفكر هو اللغة